الخطاب الشعري الحسيني بين حتمية الانتماء وبناء النص الفني

أ.د أنسام محمد راشد

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد

أ.م.د جمانة محمد راشد

جامعة بغداد / كلية الآداب

٢٠٢٤

الخطاب الشعري الحسيني بين حتمية الانتماء وبناء النص الفني

أ.د أنسام محمد راشد

أ.م.د جمانة محمد راشد

ملخص البحث

ان من المنطق ان ننظر في عين الحقيقة ونبصر نصاعتها عندما نكون بإزاء الخطاب الحسيني دائما لنجده خطابا شموليا , ومنهج حياة , أو ان نبصر الحقيقة ذاتها عندما نتناول القضية الحسينية بالبحث والتحليل فنوزع نهضتها في خانات ومشاريع عمل تفصيلية تمتد على مناحي الحياة , أي ان الثورة الحسينية كرست ثقافتها داخل المجتمع الاسلامي خاصة و في كل بقاع الارض عامة واستوحى منها العالم غير الاسلامي ايضا منهج حياة لا يمكن التغافل عنه , قد اتضح مطولا في الخطاب الادبي والثقافي والسياسي عند اكبر رجال الفكر والثقافة في العالم .

وهكذا تبقى ثورة الحسين عليه السلام أهم قضية انسانية و ابداعية كذلك الى يومنا هذا , اذ تجلت النهضة الحسينية في تعليم الانسان قيما عليا اخلاقية ودينية وثقافية وسواها , ومشاغل اخرى تدخل مضمار الابداع وتعمل على تدويمه والحفاظ عليه بالفاعلية ذاتها التي ابتدأ بها المشهد الحسيني في الطف , عندما انتصر المقاتلون لامامهم فعملوا على شحذ هممهم للقتال اما للنصر او للشهادة فكانوا يرتجزون بعض الابيات التي تذكي شعلة شجاعتهم وتمنحهم القدرة على المطاولة امام عدوهم , ومن ثم يستمر هذا النهج في التلبية للقضية الحسينية الى اليوم في دورة ابداعية ذات نكهة ونفحات ايمانية امتزجت بحق الحسين وقوة ثباته على الحق , وفي جزء مهم سيتناول بحثنا لغة النص الشعري المعاصر وكيفية تناول المبدعين لمشاهد الطف انطلاقا من قوة اعتدادهم بالامام الحسين وقضيته , فكأننا لا قبالة نصوص شعرية وحسب وانما لوحات فنية متكاملة خلطت المبدأ بالفن وفلسفة الفكر باللغة الادبية , ومن كل ما ذكرناه هنا سيبدأ بحثنا واليه ينتهي .

والنص الحسيني الشعري لا يختلف متلقوه ولا نسبة مقروئيته في ما نظن , لأنه نجح دائما في تحويل نثار مشاهد كربلاء الى صور حية تعبر عنها المعاني بكثرة ووفرة فتلمس نبضا عاطفيا دافقا في وجدان المتلقي ويتصل تذوق النص الحسيني الشعري بما ورثه المتلقي من معرفة وارتباط كلي بالامام الحسين عليه السلام , فيسهل عليه تذوق النص وقراءته من غير ملل , بل وفهمه وتفسيره لان الذاكرة الجمعية لها وعي كاف بما تقرأ وان تفاوت اداء المبدعين في التعبير واختيار العبارات الشعرية .

Research submitted to the Twelfth Husseini Conference / 2024

Al-Husseini poetic discourse between the inevitability of belonging and the construction of the artistic text

Prof. Dr. Ansam Mohammed Rashid
University of Baghdad / College of Education Ibn Rushd
Assistant pro. Dr. Jumana Mohammed Rashid
University of Baghdad / College of Arts

summary

It is logical to look into the eye of the truth and see its brilliance when we are constantly confronting the Husseini discourse to find it a comprehensive discourse and a way of life, or to see the truth itself when we address the Husseini issue with research and analysis and distribute its renaissance into sections and detailed work projects that extend to all aspects of life, that is, the Husseini revolution. Its culture was established within the Islamic community in particular and in all parts of the earth in general, and the non-Islamic world also inspired from it a way of life that cannot be overlooked. It has become clear at length in the literary, cultural and political discourse of the greatest men of thought and culture in the world.

Thus, the revolution of Al-Hussein, peace be upon him, remains the most important humanitarian and creative issue to this day, as the Husseini renaissance was manifested in teaching people higher moral, religious, cultural, and other values, and other concerns that enter the field of creativity and work to sustain and preserve it with the same effectiveness with which the Husseini scene began in Al-Taf. When the fighters won for their Imam, they worked to sharpen their resolve

to fight, either for victory or for martyrdom. They would recite some verses that would fan the flame of their courage and give them the ability to confront their enemy. Thus, this approach continues in responding to the Husseini cause to this day in a creative cycle with flavor and notes of faith mixed with the truth and strength of Hussein. His steadfastness in the truth, and in an important part our research will address the language of contemporary poetic text and how creators deal with gentler scenes.

Our research deals with the language of contemporary poetic text and how creators deal with gentler scenes based on the strength of their pride in Imam Hussein and his cause. It is as if we are not only facing poetic texts, but rather integrated artistic paintings that mix the principle with art and the philosophy of thought with the literary language, and from everything we mentioned here our research will begin and end there.

اولا : شمولية الموضوع وخصوصية التلقي

تمتد الفاعلية في أداء المبدعين عندما يخاطبون بنصوصهم مأساة كربلاء وواقعة الطف , ويتسابق كل منهم في تقديم عصارة موهبته ودفق عطائه الإبداعي ليرتقي اداؤه الفني الى المشهد العظيم ويحسن تقديمه للمتلقي في كل وقت ولا يكاد واحد من الادباء يخلو أدبه شعرا ونثرا , قديما وحديثا من ذكر موقعة كربلاء والوقوف على بسالة الامام الحسين واله وصحابته الذائدين عن قضيته , قضية الاسلام والمسلمين ومن ثم حرص الاديب على الاضافة الفنية لنشاطه الأدبي فيكتب ما يحاول به تحقيق مقاربة موضوعية بين عصره الذي يعيش وبين ثورة الامام الشمولية في طرحها , فاذا أردنا ايجاد رابط سياسي بين الاديب قديما وحديثا بامكاننا أن نعثر على عشرات النصوص الأدبية التي اسقط مؤلفوها ظروف واقعهم وماسأتهم الممتدة في النصوص على تنوعها .

واذا أردنا ربط الثورة الحسينية اجتماعيا بالازمنة الكثيرة التي مرت بعدها سنجد اتساقها وتناغمها مع الحاجة التي يطلقها الأدب وفنونه في آدابهم الى التمسك بالحق ومجابهة الظالم بالوعي الديني والتمسك بالله تعالى والدعوة الى الفضائل ليستقيم المجتمع وتنبني اخلاق أبنائه على كل أمر ايجابي , واذا فتشنا عن دورها من ناحية المبدأ وصلابة القناعة

بـه والحـرص علـى الـدفاع عنـه سنكون قبالـة نهـج سياسـي لا يعبأ بسطوة الظلـم والسلطة الظالمـة وفـي ذلـك أيضـا مـا امـتلأت بـه دواويـن الشـعراء وكتابـات الـروائيين وكـل البحـوث والدراسـات التـي تـدخل غمـار السياسـة فـي أي زمـن , فانهـا اول مـا تشـير اليـه هـي الثـورة الحسينية واشعاعها الوقاد الذي طار عبر الازمنة والامكنة والبلدان وأصبح إيقونة ثابته تجردت من خصوصيتها العظيمة وأندست الى طيات الانسانية تعلمها وتوجهها الى فعل الصواب .

وفـي مـا نواصـل التحـديق فـي فاعليـة وآثـار الطـف واسـتفادة المنظومـة الابداعيـة منهـا سنكون أمام إيقونة الدين , الاسلام , الذي لولا التمسك به والحرص على الاخرة ونبذ الدنيا , انتصارا لـه , لـولا ذلك لما كتبت هذه الثورة باللون الاحمر , بدماء رجالها الحريصين على الشهادة وهجر الدنيا , فغلبهم الذين عشقوا الدنيا وعصوا الله لا لشيء , انما غلبتهم كانت بعدة أقوى وسلاح ومقاتلين وبمواجهتهم رجال ونساء وأطفال عزّل لا يرفعون الا ايمانهم بقضيتهم ودفاعا عن دينهم , وهذا كله يمثل مادة دسمة للمبدعين ليغرفوا من معين هذا النهر العذب , بل ويتشكل مع الزمن خطابا كليا قابلا للتفصيل اذا شئنا أخذ مادته الانسانية واذا اردنا تناولـه اجمالا وتحقيقه اشاريا بوصفه حدثا يهم البشرية جمعاء , ايضا سنظفر بها التناول .

ولا يختلف خطاب الطف في مستوى تلقيه , فهو سواء على المستوى التلقي العادي, أي لكل امرىء اطلع على تفاصيل كربلاء وظروف الحدث وكيفيات استشهاد الامام الحسين عليه السلام وأهله وانبهار وتعجب الانسان في كل مكان من صلابة هذا الرجل وبسالته وأهله , اذ كيف يمكن للمرء أن يسمو بايمانه الى حد المجابهة بالعقيدة والحق فقط وهو أعزل قبالـة عـدو ورجـال وأسـلحة تفننـوا فـي الاعتـداء علـى ال بـين النبـوة وسـبي نسـائهم وقـتلهم واطفالهم وشيبهم وكل من تصدى معهم للظلم وجابهه , فأية قوة هذه تمتلك صدورهم وأية شجاعة تفيض بها جوارحهم , انـه امر صـعب بل يستحيل فعلـه الا علـى آل بيت النبوة الاطهار وهذا ما حصل في الطف .

وعنـدما نتحـول الـى التلقـي الايجـابي لهـذه الفاجعـة , أي التلقـي الـذي يتعامـل مـع متلـق مختلف بمقدوره تحليل الموضوع وتفسيره والوقوف على تفاصيله , بل واعاده انتاج نصوصه

المقروءة على صعيد النتاجات الابداعية , عندما نتحول الى هذا النمط من التلقي سنقف على نصوص فنية وابداعيه عالية الاتقان والجمال والاكتمال , توغل مبدعوها في مشاهد الطف وبكوا على تفاصيل مشاهدها وابكوا متلقيهم واخذهم التعجب من هول ما حصل وشجاعة المقاومين الابرياء وقوة الامام الذي يستنهض أهل الحق ليتبعوا الحق الذي يدعوهم للتمسك به , ومن ثم جال المبدعون في لوحات الطف وحملوها مباشرة ومرمزة الى عصورهم , ومن النادر ان نجد أديبا على مستوى الشعر خاصة لم تسجل مجموعاته الشعرية نصوصا عدة لملحمة الطف والدخول الى خضمها والذهاب اليها عبر القرون وتحقيق معايشة ادبية وانسانية معها , ويكاد يتمنى كل مبدع أن يستعير من قوة الامام الحسين شيئا ليواجه به جلادي وظالمي عصره لكنه لا يستطيع , فيظل مأخوذا بمشهد كربلاء ومأساته وفجيعة البشرية به , وينقله الى أدبه .

وهكذا تكثر موحيات الموضوع الكربلائي وقد قسمناه على جزأين رئيسين : ١. انساني او محور الانسان وكل ما يتعلق به من دين واخلاق وصفات ايجابية وفضائل ووعظ وما الى ذلك . ٢. محور ابداعي يهتم بطاقته المهولة المبدعون على تنوع نتاجاتهم وتحتوي نصوصهم المقروءة والمشاهدة كل احداث واقعة الطف منذ ارهاصاتها حتى اكتمال مشاهدها , وفي كل لدينا متلق يتفاعل بعمق مع ما يقرأ ويشاهد ويستمع وهكذا .

ويستمد المشهد الحسيني بقاءه من عمق ثقافته تلك وقيمتها التنويرية ، لانه مشهد تمكن من غرس بذرة الثورة في كل نفس انسانية على مرّ العصور , فتعلمنا منه ما نقوى به على مقاومة مشاريع السوء والاضطهاد وايضا تلك التي واجهها الانسان المسلم منذ تأسى بالامام الحسين عليه السلام , ولدينا هنا شواهد عدة نفتتح بهما كيفية بناء الحسين نفس الانسان وتوجيهها الوجهات السليمة وتركها محملة بثقل مبادئه واخلاقيات صموده ونجاح ثورته على مر العصور ,

و تطل ثورة الحسين عليه السلام من أوسع نافذة انسانية و ابداعية في آن معا , فالنهضة الحسينية انما هي نهضة أمة وحثها على البقاء والمطاولة في كل وقت , لذلك يمر توجيه الانسان وتمر تربيته اخلاقيا ودينيا عبر مصفاة الطف , فيثبت الحقيقي ويتساقط الزائف , مثلما يصنع الصائغ الذي يجلو الذهب والمواد النفيسة , لتجيء الثورة الحسينية

غاية في تعليم الانسان قيما عليا اخلاقية ودينية وثقافية وسواها , و ثمة مشاغل اخرى ابداعية تدخل مضمار الانتاج الادبي , وتعمل على تدويمه والحفاظ عليه بالفاعلية ذاتها التي ابتدأ بها المشهد الحسيني في الطف , عندما انتصر المقاتلون لامامهم فعملوا على شحذ هممهم للقتال اما للنصر او للشهادة فكانوا يرتجزون بعض الابيات التي تذكي شعلة شجاعتهم وتمنحهم القدرة على المطاولة امام عدوهم , ومن ثم يستمر هذا النهج في التلبية للقضية الحسينية الى اليوم في دورة ابداعية ذات نكهة ونفحات ايمانية امتزجت بحق الحسين وقوة ثباته على الحق , ومن ثم صعودا بنفحات كربلاء الى زماننا هذا لنقرأ نتاج الشعر لمبدعيه الذين آمنوا بالحسين ونهجوا نهجه فوق مدونات قصائدهم .

ومنذ ان دشّن الحسين عليه السلام بدمائه النقية ميدانا للشهادة حفظا للقيم العليا وصونا للمبدأ وتحقيقا لثباته في كل وقت , فكان عام ٦١ هـ عاما فيصلا للقول بثورة الحق التي امتدت الى يومنا هذا , في ما حرص المبدع / الشاعر الى اليوم على تلقف القضية الحسينية الخالدة والولوج الى تفاصيلها جماليا بوصفها معينا ثرا لا تنضب اقتراحاته التي يقدمها للمشتغل في ميادين الابداع على تنوعه بين قضية وحكاية ومعان كبرى ورموز تتبادل قيمها بكثير من العطاء ففرضت وجودها بالتمثيل والترميز وولجت عالم الاسطرة لتحقق ميثولوجيا خاصة بها , ومن دعوة للثورة تمثلا بثورة الامام الحسين الى دعوة لاستيعاب مبادئها ومعانيها الانسانية العظيمة الى دعوات للافادة منها جماليا ؛ كل ذلك سيجد مجالا مهولا للتطبيق الابداعي / الشعري , ليمضي الشاعر العراقي والعربي في النهل من هذا المعين الثر ويلون نصه بعشرات المعاني التي دعا اليها الحسين ثائرا وانسانا وداعيا الى الحق ومجابها للظلم والظالمين .

وهكذا تسربت الى الادب العربي شعره ونثره عشرات المعاني المنبثقة من قضية رئيسة عاشها المسلمون بكل فجائعها المتوالية واستلهموا منها موضوعات نصوصهم فتحولت المدونة العربية الشعرية الى باحة رحبة تستقبل المشهد الحسيني ملحميا وغنائيا ودراميا وقصصيا وتسحبه الى المشهد المعيش اليوم وتحمّله اسقاطات ما حصل في الطف وفاجعة كربلاء .

وقد تفاوت المبدعون في رسم حركة الشهادة وملحمتها الانسانية على الرغم من اتفاق الجميع على أصل ثابت يضرب بجذوره في أطناب العطاء والتضحية والخلود ويوزع تفاصيله شظايا مضيئة باتجاه تلك المعاني فكان النبع الثر الذي غرف منه الشعر ممثلا في صورة القداسة التي أحاطت بالثورة الحسينية وتداولتها الاجيال تباعا , كان هذا النبع غاية موضوعية انجزت نصيا قصائد تحفل بالمزيد من التقانات الادائية وبحسب التناول المقصود من الشاعر للقضية الحسينية فنجح الشعر العراقي والعربي في مدّ رابط وشيج بين القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية والفكرية التي يعيشها المبدع وبين موقعة الطف الخالدة , فصار الشهيد ايقونة للتضحية والعطاء وصارت القربى امثولة للايثار والتضحية وصارت الاسقاطات الحاضرة على ماض يتوهج تحضر بقوة في الأدب وتحتمل تفريعات كثيرة , وهكذا بقيت العودة الى الإرث الحسيني مطلبا ادبيا كاشفا عن الوعي الفكري بما حمله ذاك المشهد العظيم وما تركه للأجيال من قيم ومعان .

ومما نفذ منه الى المتن الانساني سيتناول بحثنا انفرادات ابداعية لكيفية التربية الحسينية للناس والمقاتلين خاصة من انصاره وتدويم ثبات اهل بيته زائدا ما انتقيناه من نصوص ابداعية لأسماء شعرية سجلت بصماتها فوق مدونة القصيدة العربية فاخترنا من تجارب أمل دنقل وعبد الرزاق عبد الواحد والجواهري وأدونيس لوحات نصية حضر فيها اسم كربلاء وتجمع فيها إرث الامام الحسين عليه السلام , وقمنا بتحليلها كشفا لالتقاطاتها وكيفيات ذوبان المشهد الحسيني فيها واشراقاته لا على المستوى المضموني والدلالي فقط بل على المستوى البنائي الفارق بين مبدع وآخر وتناول وآخر , إذ تظل اقلام المبدعين ترسم لوحات ملحمية لمسألة المد الحسيني العظيم عبر التأريخ .

يقول المستشرق الأمريكي غوستاف غرونييام : الكتب المؤلفة في مقتل الحسين تعبر عن عواطف وانفعالات طالما خبرتها بنفس العنف أجيال من الناس قبل ذلك بقرون عديدة , ان واقعة كربلاء ذات أهمية كونية , فقد أثرت الصورة المحزنة لمقتل الحسين الرجل النبيل الشجاع في المسلمين تأثيرا لم تبلغه أية شخصية مسلمة اخرى .(١) , وانما يسجل هذا الكلام موقف العالم الغربي بشخوصه ومفكريه من قضية استشهاد الامام الحسين ويحفزهم للدخول في تفاصيل ذلك وتقديمه الى جهورهم على اختلاف طبيعه تلقي كل مجتمع

للقضية الحسينية وتفاعله معها , وكل الشواهد تذهب الى ان القضية الحسينية تركت بصماتها محفورة في أذهان الناس في كل مكان وزمان أيضا . ومنحتهم بعض الثوابت لتشكل مبادىء حياة لديهم , ولاجله غادر الامام الحسين حدود جسده وعصره ليشرئب بجهاده الى كل زمان قادم , أو كل مستقبل قريب أو بعيد , مثلما نحس بالاشراق الذي أفاضته أرض الطفوف على الانسانية في عبارات قالها المفكرون والادباء والكتّاب حول العالم , إذ تفاعلت أرواحهم مع شهادة الامام الحسين واطلعوا على قضيته , واقتربوا من روح الانسان والمؤمن المتيقن والباسل الجسور الذي لا يهاب في الله أحدا , فقالوا جميل الكلام عنه , ومن ذلك أيضا ما يأتي **(٢)** : -

١. **وانه لمقام تتطاول اليه الأعناق لتقتبس العيون والقلوب من نورهداه , ولترى كيف ترتفع البشرية الى الملأ الأعلى , وكيف تصمد الروح لآلام الجسد , وكيف تحتمل النفس ما لا طاقة به لبشر . (سيد قطب)**
٢. **لقد كانت حركة الحسين احتجاجا على مثل ذلك التنكّب الفاضح عن منهج الاسلام ومصلحة الأمة , وأرجو أن لا يهرب عن البال أن هذه الحركة الحسينية لم تكن الوحيدة في الاحتجاج ضد ذلك الوضع المزري , انما كان الاسلام كله صرخة مدوّية ضد يزيد وضد أمثاله . (الدكتور علي الوردي)**
٣. **أما مأساة كربلاء .... انها لا تمثل مصيبة فردية شخصية ولكنها ترمز الى (الاستشهاد في سبيل مبدأ) .... فإذا كان الاستعمار يقيم في كل بلد من بلاد العرب والمسلمين كربلاء جديدة , فأنى للعرب والمسلمين أن ينسوا كربلاء الاولى وينسوا الحسين عليه السلام . (الدكتور عمر فروخ)**

ثانيا :- مفهوم التربية الحسينية للانسان

ان من المنطق ان ننظر في عين الحقيقة ونبصر نصاعتها عندما نكون بإزاء الخطاب الحسيني لنجده خطابا شموليا , ومنهج حياة , أو ان نبصر الحقيقة ذاتها عندما نتناول القضية الحسينية فنوزع نهضتها في خانات ومشاريع عمل تفصيلية تمتد على مناحي الحياة , أي ان الثورة الحسينية كرست ثقافتها داخل المجتمع الاسلامي خاصة و في كل

بقاع الارض عامة واستوحى منها العالم غير الاسلامي ايضا منهج حياة لا يمكن التغافل عنه , قد اتضح مطولا في الخطاب الادبي والثقافي والسياسي عند اكبر رجال الفكر والثقافة في العالم .

ويستمد المشهد الحسيني بقاءه من عمق ثقافته تلك وقيمتها التنويرية ، لانه مشهد تمكن من غرس بذرة الثورة في كل نفس انسانية على مرّ العصور , فتعلمنا منه ما نقوى به على مقاومة مشاريع السوء والاضطهاد وايضا تلك التي واجهها الانسان المسلم منذ تأسى بالامام الحسين عليه السلام , ولدينا هنا شواهد عدة نفتتح بهما كيفية بناء الحسين نفس الانسان وتوجيهها الوجهات السليمة وتركها محملة بثقل مبادئه واخلاقيات صموده ونجاح ثورته على مر العصور , **قال الامام الحسين عليه السلام مخاطبا الناس يريد الانتصار بهم نصرة لدين الله ابتداء : ايها الناس , اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعلمكم بما هو حق لكم عليّ وحتى اعتذر اليكم من مقدمي عليكم , فان قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف , كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل , وان لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من انفسكم فاجمعوا أمركم وشركاءكم , ثم لا يكن أمركم عليكم غمة , ثم اقضوا إليّ ولا تنظرون , ان وليي الله الذي نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين .(٣)**

يخبرنا هذا النص ان الامام الحسين وهو يعلم انه مقبل على معركة غير متكافئة بينه وبين عدوه لكنه يبدأ صلبا ثابتا بل يحيل نبرة اليقين الى الناس ليطالبهم بالاستماع اليه ومجانبة العجلة ليتيسن لهم الحق من الباطل فيتبعون الحق وهم أهل لاتباعه كما يراهم , وهذه امور تدخل باب كيفيات تربية الانسان والارتفاع باخلاقياته من دون تأثير على رأيه أو توجيه قناعاته وجهة لا يرضاها , ودليل ذلك انه آخر كلامه سيخبرهم مسلما بنصرة الله له مهما حصل ومهما اختار المقابل من موقف , وثمة نقطة توعوية اخرى هي انه لم يطلب منهم الا الانصاف وهذا احتكام الى العقل والرشد قبل القلب , اما التي هي أحسن في مخاطبتهم انه ترك امرهم بيدهم ليروا ما يرتضون , فأية تربية اخلاقية للانسان ترتفع بقيمته امام نفسه وذاته اولا قد جمعها كلام الامام الحسين عليه السلام للناس , ويطل شاهد آخر يبين لنا تكريس مبدأ التربية الاخلاقية التي نهجها الامام الحسين بحيث تمتد خطوات منهاجه قرونا عدة ليجد الانسان في كل مكان نفسه متأسيا بهذه القدوة العظيمة , ولأجله يقول الزعيم

الهندي غاندي في وصفه للامام الحسين عليه السلام : " **على الهند اذا ارادت أن تنتصر أن تقتدي بالامام الحسين** " **(٤)** , كما يؤكد أنه نظر في قضية هذا الرجل وحكاية الظلم والشهادة فتعلم منه ويريد لشعبه الهندوسي خاصة ان يتعلم من صلابة الموقف الحسيني , فغاندي هندوسي ويجهل الكثير من أسباب التحدي والتفوق ومن ثم النصر , وعندما اطلع على ثورة الحسين عليه السلام اخذته ايما مأخذ منبهرا ومفتونا بقائدها وحيثيات الثورة كلها , فوقف هؤلاء على ثقافة جديدة لم يألفوها , بل يحتاجون شيئا كثيرا من تفصيلاتها ليستمدوا منها شجاعة يقاومون بها اعداءهم ومغتصبي حقوقهم , وهذا شاهد أول , أما شاهدنا المتمم للتقدمة هذه فهي كيفيات بناء النص الابداعي ليصبح نصا متكاملا خاصا بصاحبه وادبه , بل يقدم مدونة خاصة سميت بالأدب الحسيني , القابل للمزيد كلما تدفقت قرائح المبدعين وتعاملت مع الطف ومشاهده .

وينقسم المشهد التنويري والتوعوي للانسان من شاهد آخر يدخل منظومة الادب من باب خاص هو الانموذج الشعري للارجوزة , كيف وظفت حينها لنصرة واذكاء فتيل الحماسة والشجاعة في النفوس , أفلا نقف على أراجيز اوقدت حماسة الانصار والمريدين حينها , فصارت سببا قويا في بث الصلابة والمقاومة في النفوس , ونحن قبالة ساحة حرب ونزال تتطلب الاندفاع وكل ما شأنه التحفيز على القتال لاسترداد الحقوق , وهذا ما حصل وكان رجال الامام يستفتحون نزالهم وقتالهم بذكر أبيات من أراجيز تشحذ قواهم وتملأ نفوسهم عزيمة , ومنها قول أبي الفضل وهو يرتجز مقبلا على الشهادة **(٥)** :-

والله إن قطعتموا يميني اني أحامي أبدا عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

ولا يخفى ان هذه الابيات القصيرة القليلة بامكانها ان تؤجج طاقة المقاتل وتمنحه بسالة ودفعة نفسية هائلة لمقارعة عدوه , لذلك لاحنا ان المقاتلين في معسكر الامام الحسين هم من أثر عن بعضهم اطلاق الاراجيز الشاحذة للعزائم وليس من هم قبالتهم من معسكر عدوهم الذين لم يعرف عنهم تشجيع مقاتليهم بقول الاراجيز او الابيات سواء حين المعركة أم ما سبقها . وهذا أمر يؤشر باتجاه أصحاب الحق والحقوق بالطبع , وسوف نتوقف عند نماذج أخرى من الاراجير الثورية للطف .

ونرى ان ثمة أمر آخر يدخل ضمن أدبيات الثورة الحسينية , ذلك هو تخصص القصيد بتفاصيل المعركة وظروف الشهادة ووطيس القتال وكل ما له صلة بالطف , وهذا الامر ضمن لنا مدونة عالية القيمة شعرية ملحمية تناولت كربلاء الحسين وما زالت تستمد منها معاني الفداء والبطولة , فيوظف المبدع طاقته الابداعية الشعرية للالمام بحاضره عبر التلاقح الاخلاقي لتقديم قيمة معرفية متكاملة عن الطف والشهادة , وهذا ما يهمنا الوقوف عليه ايضا في ورقتنا البحثية .

نريد القول ان البناء الحسيني للانسان لا تحده أزمنة ولا تحجمه نصوص عابرة قيلت ومضت , بل انها دورة ابداع مهولة ستبقى جذوتها متوقدة وضاءة .

ويستمد الامام الحسين منظومة تربوية واخلاقية متكاملة من قوة ومتانة علاقته بالله جل وعلا ويقينه به متأسيا بالحبيب المصطفى جده عليه افضل الصلاة والسلام حينما قال في حديثه الشريف :- انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق , فنقل المعاني العطيمة الى اهله وال بيته وعندما تبع الامام الحسين نهج جده كان حريصا على تتبع الخلق العظيم تعاملا وكلاما مع الناس جميعا , ابتداء بمراعاة مقام الحديث من دون ان ينسى ان اللين في التعامل مع الناس هو اقصر الطرق لكسبهم وتبصيرهم بالحقائق التي يجهلون وهذا ما كان .

ان القدرة التي امتلكها الامام الحسين وال بيته وصحبه على ترجمة المعاني الى وقائع ملموسة تعاملوا بها مع صحبهم قبل عدوهم , تلك القدرة لا تتأتى لأي انسان , بل وهبت ليرتدي الامام الحسين ملبسها وتصبح واحدة من أدواته في القتال ومقارعة الظلم , بمعنى ان القيم الاخلاقية الحسينية منظومة مكتملة النسج محبوكة بأصولها , واصولها دينية اسلامية قصدها نصرة دين الله تعالى باحقاق الحق ورد الظلم , وعليه فان لمحة مباركة من هذه المنظومة تجعلنا بازاء الرحمة واللين اللذين عامل بهما الامام عدوه ومقاتليه بقصد توعيتهم وردهم الى رشدهم وصوابهم بالعودة الى كتاب الله وتجسيد المفاهيم الاخلاقية التي امر بها الحبيب المصطفى عليه افضل الصلاة والسلام ,فهي ثورة انسانية مليئة بالمعاني الايجابية وقادرة على وهبها وتعليمها , ومن ذلك قرأنا ان الامام الحسين عليه السلام التقى في طريقه الى كربلاء واحدا من ألوية جيش ابن زياد , وكان مقاتلوه ألفا ويزيد مع خيولهم وعدد قتالهم , وكانوا عطاشى , فامر الامام اتباعه بسقي هؤلاء المقاتلين قائلا : - **اسقوا**

القوم واروهم من الماء ورشّفوا الخيل ترشيفا (٦) , في ما سقى الامام عليه السلام بنفسه ابن طعان المحاربي .

انه نبل الفارس الذي جاء بنية السلام تصحبه قوة ايمانه وصلابة عقيدته ومن ثم فان هذا النبل جزء من النهضة الحسينية التي طافت الاجيال وحطت رحالها في كل مجتمع وليس المجتمع الاسلامي فقط , مثلما انه ينم عن رجاحة عقل وحسن تقدير وتدبير , فالامام عليه السلام نظر للانسان امامه وهو محتاج لشربة الماء ولم يفكر فيه من جانب اخر مطلقا.

ان الامام الحسين عليه السلام كان ينطلق في جملة افعاله واقواله من مرتكزات عدة منها ما هو ديني ومنها ما هو تربوي ومنها ما هو فطري ومنها ما هو وراثي حمله معه من بيت النبوة ومنها ما هو ثوري كذلك , ومن أهم هذه الركاز , الركيزة الحسينية الدينية , فقد قال المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام :- **حسين مني وأنا من حسين** , انه وارثه دينا وعلما وخلقا وبذلك كله كان الامام ينطق , فاذا كانت الأخلاق بالمعنى الأدق، هي الملكات النفسية المقتضية لصدور الأفعال بسهولة من دون احتياج إلى فكر وروية، فإن تحصيلها يحتاج إلى مجاهدة وتربية، من خلال التوجيه العقلي، والقلبي والروحي. كيما تبنى على المباني الصحيحة , كذلك فان قول **الامام علي عليه السلام :- رأس العلم التمييز بين الاخلاق وإظهار محمودها , وقمع مذمومها (٧)** , يدخل قوله عليه السلام هذا في الباب ذاته الذي نقصده ,انه الذي بشرت به النهضة الحسينية , تربية المسلم وحثه على الحرص على دينه والدفاع عن الحق بكل مرتخص وثمين مهما كانت التضحية بالمقابل .

ثالثا : ملامح ابداعية لنهضة شمولية

قد تخطت ثورة الحسين زمنها , فسارت ملامحها وملاحمها في دروب الابداع منذ ان كتب ابطالها بدمائهم تفاصيلها ومنها كما ذكرنا بعض الاراجيز والاشعار البطولية والى يومنا هذا , ولنا هنا وقفة مع أبطال الطف , إذ كانوا عندما يودعون الامام الحسين عليه السلام ويتوجهون للمنازلة يقول أحدهم للامام :- السلام عليك يا ابن رسول الله , فيجيبه الامام بالسلام وانا على أثرك , ثم يقرأ قوله تعالى : (ومنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما

بدلوا تبديلا) , **فيخرج نافع بن هلال الجملي وهو يرتجز : أنا الغلام اليمني الجملي ديني على دين حسين وعلي أن أقتل اليوم فهذا أملي (٨) .**

و ما إن اكتملت أركان الثورة الحسينية بشخوصها وأحداثها كافة , وما إن استيقظ الكون داميا على فاجعة استشهاد الامام الحسين وال بيته وصحبه , ونحن معهم نتسابق لنغرف من معين هذا العطاء الاستثنائي على مرّ الزمان , وهكذا تطل ثورة الحسين عليه السلام من أوسع نافذة كونية لتلمس تخوم الانسانية وتنفذ تباعا الى مشاهدها الحياتية الحيوية وتؤلف حزمة من الوان كثيرة بين القتامة والوضوح , وبين الجمال والقبح , بين الشهادة والخيانة , بين العطاء والبذل والتخلي والنكوص , وبين العزة والتقوى والكفر والظلم , وبين البقاء والخلود والنبذ والابعاد , ومشاهد اخرى ومعاني كبيرة تسللت جميعها الى المتن الابداعي عبر الازمنة شعرا ونثرا , فمنذ ان دشّن الحسين عليه السلام بدمائه النقية ميدانا للشهادة حفظا للقيم العليا وصونا للمبدأ وتحقيقا لثباته في كل وقت , أصبح منذ ذلك الوقت عام ٦١ هـ عاما فيصلا للقول بثورة الحق التي امتدت الى يومنا هذا , في ما حرص المبدع / الشاعر اليوم خاصة على تلقف القضية الحسينية الخالدة والولوج الى تفاصيلها , في جمال لا تنضب اقتراحاته التي يقدمها للمشتغل في ميادين الابداع على تنوعه بين قضية وحكاية ومعان كبرى ورموز تتبادل قيمها بكثير من العطاء ففرضت وجودها بالتمثيل والترميز وولجت عالم الاسطرة لتحقق ميثولوجيا خاصة بها , ومن دعوة للثورة تمثلا بثورة الامام الحسين الى دعوة لاستيعاب مبادئها ومعانيها الانسانية العظيمة الى دعوات للافادة منها جماليا ؛ كل ذلك سيجد مجالا مهولا للتطبيق الابداعي / الشعري , ليمضي الشاعر العراقي والعربي في النهل من هذا المعين الثر ويلون نصه بعشرات المعاني التي دعا اليها الحسين ثائرا وانسانا وداعيا الى الحق ومجابها للظلم والظالمين .

وهكذا تسربت الى الادب العربي شعره ونثره عشرات المعاني المنبثقة من قضية رئيسة عاشها المسلمون بكل فجائعها المتوالية واستلهموا منها موضوعات نصوصهم فتحولت المدونة العربية الشعرية الى باحة رحبة تستقبل المشهد الحسيني ملحميا وغنائيا ودراميا وقصصيا وتسحبه الى المشهد المعيش اليوم وتحمّله اسقاطات ما حصل في الطف وفاجعة كربلاء .

وقد تفاوت المبدعون في رسم ايقونة الشهادة وملحمتها الانسانية على الرغم من اتفاق الجميع على أصل ثابت يضرب بجذوره في أطناب العطاء والتضحية والخلود ويوزع تفاصيله شظايا مضيئة باتجاه تلك المعاني فكان النبع الثر الذي غرف منه الشعر ممثلا في صورة القداسة التي أحاطت بالثورة الحسينية وتداولتها الاجيال تباعا , كان هذا النبع غاية موضوعية انجزت نصيا قصائد تحفل بالمزيد من التقانات الادائية وبحسب التناول المقصود من الشاعر للقضية الحسينية فنجح الشعر العراقي والعربي في مدّ رابط وشيج بين القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية والثقافية والفكرية التي يعيشها المبدع وبين موقعة الطف الخالدة , فصار الشهيد ايقونة للتضحية والعطاء وصارت القربى امثولة للايثار والتضحية وصارت الاسقاطات الحاضرة على ماض يتوهج تحضر بقوة في الأدب وتحتمل تفريعات كثيرة , وهكذا بقيت العودة الى الإرث الحسيني مطلبا ادبيا كاشفا عن الوعي الفكري بما حمله ذاك المشهد العظيم وما تركه للأجيال من قيم ومعان .

ومما نفذ منه الى المتن الشعري سيتناول بحثنا انفرادات ابداعية نصية لأسماء شعرية سجلت بصماتها فوق مدونة القصيدة العربية فاخترنا من تجارب أمل دنقل وعبد الرزاق عبد الواحد والجواهري وأدونيس لوحات نصية حضر فيها اسم كربلاء وتجمع فيها إرث الامام الحسين عليه السلام , وقمنا بتحليلها كشفا لالتقاطاتها وكيفيات ذوبان المشهد الحسيني فيها واشراقاته لا على المستوى المضموني والدلالي فقط بل على المستوى البنائي الفارق بين مبدع وآخر وتناول وآخر , إذ تظل اقلام المبدعين ترسم لوحات ملحمية لمسألة المد الحسيني العظيم عبر التأريخ .

رابعا : الشخصية الحسينية والرمز

يستحوذ اسم الامام الحسين (عليه السلام) على معظم العنوانات الرامزة عندما يطل اسمه وقضيته أمام أي تناول ابداعي , وعلى رأس ذلك الشعر , فالشعر لغة الرمز والاحالة غير المباشرة , ولغة الابداع الذي بمقدوره صنع المحاكاة دوما وايهام المتلقي انه قبالة مشهد واقعي يتطابق مع الواقع وحقائقه , فكيف اذا كان الامر كذلك فعلا , وتحقق ابداعيا مرتين الاولى بادخاله الى نسيج قصيدة شعر والثانية بصنع الشعر من تجربة حصلت لكنه تمكن من تفعيلها واخراجها بالوان التناول كلما مرت فوق مدونة القصيدة في أي وقت , منذ الطف

الى اليوم والشاعر يخلط الفاجعة بأوراقه الخاصة والعامة فيكتبها من جديد وتظل هي جديدة مع كل خطاب وأثر فني , قصيدة ام رواية ام مسرح أم نحت وتشكيل والى آخر ما يعرف للابداع من هويات حية ودافقة بالتجارب والمبدعين .

ان الامر اذن لا يخلو من إمثولة وايقونة صارت من البديهيات في التناول الفني أيّا كان جنس العمل الابداعي الذي سيوظف واقعة الطف التي صارت رمزا يتوهج يعلن حضور القضية الحسينية كلما ورد اسم صاحبها في نص أدبي شعرا كان أم نثرا , ومعنى ما نقول أننا يتداعى الى أذهاننا المشهد الكربلائي وتفاصيل الفجيعة حالما نقرأ اسم الامام الحسين فوق متن أدبي , إن مرّ عرضا للاستشهاد به على حاضر مقيت موجع يقرنه الشاعر بكربلاء والطف أو امتد ليكون قضية النص الرئيسة ثيمة وبناء وعبارات , أي إن تم توظيفه غاية وهدفا لبسط القضية أو التقنع والترميز به لغايات اخرى يختبىء المبدع غالبا خلفها ويعرض ما يريد عبر الاشارة الى الامام الحسين عليه السلام وواقعة استشهاده , ففي الحالتين الحضور الحسيني دافق متوقد يختصر قضية الحق والباطل والعدل والظلم ان مرّ بصورة نسقية جزئية سطرية قليلة موضعية ومحدودة أو العكس وهكذا كان , فامتلأت صحاف المبدعين شعرا من ينابيع الطف ودلائلها العظيمة ومعانيها ورموز اصحابها الى ان أمسك النص بايقونة المشهد كله وهو شخص الامام الحسين عليه السلام والحيف الذي طاله واهله , فيكون الحديث الشعري حينها ممتدا تتشطر اجزاؤه عن مزيد دائما .

وستحمل ايقونة الحسين الاشراقة كلها عندما تتمدد في نسيج النص فترمي الحاضر في اتون التأريخ وارثه الحسيني , فيتفرغ المبدع لها ليحاورها ويستضيىء نصه بها أو ينقلها الى زمانه مفضلا أن يعقد صلات وشيجة بين القضية المستدعاة وظرفه الذي يعيش , ولم لا .. فالظلم واحد وطاغ في كل الازمنة وجلب مشهد الامام الحسين الى اليوم شاهد ودليل على السوء المرصود من المبدعين لحاضرهم الذي يعيشون , فتكثر من ثم التفاصيل التي يستوحيها النص , بل والاكثر من ذلك , فان مأساة كربلاء بمقدورها أن تضيف من عندها ما شاءت من صور المأساة والفجيعة , فهي متحركة سياقيا ونسقيا وعموديا وتمنح أبعاد تعبيرية زائدة لمن أراد من النصوص الابداعية الاتساع في توظيف المشهد الأبشع حضورا منذ حصل الى اليوم , مثلما انها تجترح وجوها تعبيرية لمعان لا حصر لها , ذلك أن فيوض

إسقاطاتها كثيرة ومتفرعة , فهي تقدم المعاني الايجابية وترصد السلبية وتذيب الاثنين في بوتقة واحدة وتعطي نتائج اعتبارية وتعبيرية مهولة ومشاهدها هي هي , أي مهما تكررت ومهما استزيد منها فلديها المزيد والجديد .

وقد سجلت كربلاء والطف إرثها عظيما وثابتا ليصبح من ضمن تداوليات المجتمع الاسلامي وشؤون الذاكرة الجمعية للانسان في العالم ككل , فبقي محفوظا في كل زمان ومكان بطريقة التسليم بلونه الأوحد , لون الدم والسواد , وهكذا تنضاف مسألة التشكيل بالحسّ الى ايقونات المشهد الحسيني , وبالامكان أن نجمعها في سلة الفداء والبطولة والتضحية ومن ثم نعيد توزيعها على ما نشاء من أفكار شعرية تخاطب عاطفة المتلقي وبصورة معرفية تخاطب ذهن المبدع وتنتقل كما ذكرنا الى ذائقة المتلقي بيسر , لأن أيّ توظيف لشهادة الامام الحسين سيضغط تلقائيا على الجرح النائم ليوقظه في وجدان المتلقي , فيستثيره ويعيد المتلقي ذاكرته الى الطف فيلج مشاهد الفجيعة بأحاسيس الألم والوجع ويستفزه استشهاد الحسين ويشاركه فيه فيشعر بذات العجز عن دفعه وكأنه مشهد حاضر في وقتنا وماثل أمام أعيننا , وما دام الأمر كذلك فإن للشعر العربي والعراقي علاقة وثقى بكربلاء وإنّ تداول اسمها عند الشعراء في نصوصهم صار عرفا ابداعيا وأدائيا لا مناص منه خاصة مع تقريب الصورة الى حاضر المتكلم وجعل الحدث صنوها , رغبة في الارتقاء بمستوى الفكرة والموضوعة الشعرية الى درجة وجدانية وعاطفية عالية بل قصوى .

ومن ذلك ايضا اننا لا نستغرب أن يغادر المسلمون الى الضريح الشريف كل عام , وكل وقت من العام , خاصة في ذكرى كربلاء الطف ليعاهدوا الحسين على نجدته وإن رمزا وتمثيلا , كلّ ذلك بسبيل الحفاظ على نهج الامام وتجديد سيرته وتلقينها لكل جيل بألوانها الكابية القاتمة , فإذا شئنا البحث عن ملهم موضوعي تعبيري للطف فسوف نجد مدونة زاخرة بالموضوعات الرئيسة والافكار العامة فضلا عن الأفكار المرافقة لها , واذ أردنا إدراجها ضمن مسميات فكرية ومعرفية فانه بمقدورنا البحث عن جديدها الذي ينطلق الى الأثر الإبداعي حاملا له مادة ذات معين ثر بوسع المبدع استلهامها وتحويل مأساتها الى نثار فكري شامل سياسي أدبي ثقافي ديني عقائدي اجتماعي , ويعززه بتنوع أدائي ذي تقانات

فنية كثيرة بمنظور ثابت , إذ انها جزء ثريّ من تراث المبدع يفيد منه متى شاء او وفقا لكيفيات بناء فنه ونصه موضوعة وأدوات .

وهكذا بقت كربلاء والطف منطقة ثراء تراثي ديني وتأريخي ومعرفي وأدبي وإبداعي وسياسي , وانه تراث مطواع تطاولت قامته حتى هيمنت على فعاليات المتن الشعري الذي وظفه , فصار شاهدا عليه وليس العكس , إذ لا نحسب أننا نبالغ , فإنّ فاجعة الطف قد تمكنت من اعتلاء كل رفوف المنظومة الأدبية بتسميات متنوعة , بمعنى أننا حين نبحث في موضوعة الرثاء عامة ورثاء عظماء الدين والتأريخ والقادة وأهل البيت ,ستكون واقعة الطف ثيمة كثيرة النتاج من مبدعيها , واذا أردنا تصنيفا موضوعيا آخر كالمديح , فإن بإمكاننا أن نجد نصوصا هائلة تمتدح سيرة الامام الحسين (عليه السلام) وتفخر بشجاعته وإقدامه وبسالة مجابهته اعداءه بكل ثبات واعتداد بشخصه ونسبه حتى صارت عزته وصبره يوم الطف ضربا للمثل والإقتداء .

واذا ابتعدنا لانتقاء ثيمة أخرى تخرج صاحب القضية الى مصاف الميثولوجيا وتضفي عليه هالة من الأسطرة بله الترميز – أيضا – فسوف نجد بغيتنا في نصوص ابداعية شعرية سحبت شخصية الامام الحسين الى خانة المشهد الاسطوري , فارتفعت عن كونه حقيقة واقعة مرّ عليها زمن طويل , وإذا بحثنا عن المعاني المنسابة من مشهد كربلاء الى الأدب العربي , فإننا سنجد حركة زمانية مهولة تصعد بيسر من ماض الى حاضر وتمتد الى المستقبل وتستشرفه وتنهل من إضاءات وإشراقات الطف حتى الألواح القاتمة منها , غير انها ستحفر عميقا في ذاكرة القادم بعد أن دقّت أطنابا في ذاكرة المجموع أو التأريخ حتى طوّعته لها , فغدا الادب مسرحا رحبا للقضية الحسينية وكثير من الفنون أيضا .

انها تقدم نمطا من الديمومة والاستمرارية التي تمتلك قابلية التجدد تلقائيا , بل كلما قدمت تعتقت مشاهدا وتفاصيل ومبادىء وأفكارا , وصارت القضية قضايا كثيرة , أما رميها في أتون الملحمة وإعادة صياغتها في الأدب ملحميا ودراميا , فلا أدلّ على ذلك من أن الشاعر العربي والعراقي قبله تلقف قضية كربلاء بغض النظر عن عقيدته ودينه ومعتنقه , انه بازاء قضية الانسانية منذ حصلت وقائعها , ويندرج ما نذكره – أيضا – تحت وصف القداسة , بمعنى أن الامام الحسين غادر مسماه وحتى سمته الدنيوي وحلّق منفردا ليعاد

توصيف شخصه بعد استشهاده بطريقة الفجيعة التي تعدّ أهم ركن من أركان إرثه العظيم , إذ لم يكتف الأدب بأن يقدم مادة ابداعية عن ريحانة النبي صلى الله عليه وسلم , وسيد شباب اهل الجنة وسوى ذلك من صفاته , بل يضيف الى كلّ هذه التسميات جديدها عندما استوعب العقل الجمعي ما حصل من مشهد الطف , وبدأ يرتّب أولويات الحكاية بحسب تناولها تباعا , ليصير الامام الحسين (عليه السلام) امرءا بمرتبة دنيوية خاصة وذا تشريف الهي استثنائي كذلك , وقد رمى بذلك التشريف على الخلق جميعا لينظروا اليه من هذا المنظار الاستثنائي الذي حبا الله به الحسين عليه السلام وأهله , ومن ثم امتد الرمز ليصبح ايقونة دالة ارتهنت باسمه , تؤشر معنى وقيمة الفداء ابتداء , وهكذا تحولت هذه الامثولة الى ما يشابه الميثولوجيا الحية على الرغم من فوات تأريخها بقرون وأزمنة عديدة .

انها جملة من التعليلات لدور القضية الحسينية في رفد الابداع بأفكار كثيرة منذ بداية القول في الطف الى يومنا الحاضر , وقد توقفنا انبهارا عند الامام الصادق الذي قال بعد سماعه شعرا راثيا في الحسين بكى له حتى ابتلت لحيته ووجهه فقال : ما من أحد قال في الحسين شعرا فبكى وأبكى به الا أوجب الله له الجنة وغفر له ؛ ومن ثم ستحظى واقعة الطف باهتمام الادباء بصورة أكبر وتواكب في توظيفها جديد البناء الشعري وتنتقل من النتف والقطع القصار أو المقطوعات كأول عهدها بتوثيق الطف وبكاء واقعته الى النصوص الكاملة الطويلة , بل الملحمية , كما فعل الجواهري في قصيدته التي القاها في الحفل الذي أقيم في كربلاء في الصحن الحسيني الشريف عام ١٩٤٧ ونشرت في دواوينه باسم (آمنت بالحسين) ونقشت بالذهب في الباب الرئيس للضريح الشريف في كربلاء , وهي عينية ملحمية كان الجواهري حريصا على القائها وانشادها في المناسبات الحسينية والمهرجانات سواها , فضلا عن كل ذلك فإن القصائد التي تقال وتنشد في مأثرة الطف الاليمة وتقتفي خطا شعريا تصاعديا وتغادر سقف البساطة والتسجيلية المفعمة بالعاطفة الجياشة الى عمق الرؤيا وخلط الأحداث واستشراف المسكوت عنه عبر اسقاطات الترميز والاقنعة وتحقيق فكرة السرد وبنائه شعرا , فنجد المراثي الكاملة والمدائح الكاملة والحماسة والبطولة والشجاعة والاقدام وغيرها من المعاني الشعرية التي بامكانها ان تجتمع في نص بعينه أو تتوزع على نصوص كثيرة لمبدعين أكثر , مثلما بامكاننا ان نرصد ذكر الوقائع كاملة وتصوير مشاهد

بالغة الدقة وعالية الشعرية عن أحداث الطف والبكاء على تفاصيل شهادة الامام واهله , ونجد استبطان الاحداث والتلويح بالفضائع التي حصلت عبر انتقاءات واسعة لأجزاء الملحمة والثورة الحسينية والبناء عليها , وفي كلّ فإن المتلقي قبالة حكاية لنص شعري يحتمل التخييل ووهمه والتجريد ورؤياه الغائرة في انتاج دلالات يتم اكتشافها وتفسيرها وتأويلها , في حين أن كثيرا من النصوص الشعرية اصبحت حسينية بتمامها بمعانيها وأفكارها , أو أصبحت إنتصارا لثورة الامام الحسين والتلويح بها غاية لكل ثائر وصاحب حق.

لقد ظفرت القصيدة العربية بدوافع القول الشعري والبناء النصي في رحلة الطف وثورة الامام الحسين وفي تشكيلات أداء متنوعة – كما ذكرنا – فوظف الشعراء التقانات الفنية جميعها وكثيرا ما مزجوا الفني بالتعبيري ليخرج النص من إطار الغناء الى الخطابة والحماسة مع تصاعد وتيرة الشحن العاطفي الذي تمكنه منه واقعة الطف وفاجعتها واستذكار المأساة بكثير من التفاعل معها حتى الدخول في حرائقها والذهاب اليها عبر الورق والنص , في حين تنسرح نصوص كثيرة الى اللون الدرامي عندما توظف تقانات القص وادواته , أو تطول النصوص فيصبح نفس الشاعر نفسا حسينيا ونصه ملحميا يذيب المأساة في بوتقة الحاضر ويصعد بها اليه فيسقطها عليه , فتتوقد قيمة الترميز وآلته البنائية , وممن فعلوا ذلك الشاعر المصري أمل دنقل عندما تقنع بشخصية الشاعر أبي نؤاس لينتج نصا قوامه الترميز بشخصية الامام الحسين , فيجعل الأول ناظرا الى ماساة الثاني مشاركا له فيها لو تمكن , ولو استطاع لناوله جرعة ماء تعينه في مواجهته ضد الباطل وهي جرعة الماء ذاتها التي يبحث عنها الشاعر أمل دنقل لتروي ظمأه وعطشه , انه يبحث عن الحياة فيرفع مأساته هو الى مأساة الامام الحسين ويتعجب من هول الفجيعة وينتهي به الحال أن يرغب بتناول المزيد من المدام والخمر لينسى ما سمعه من الشيخ عن الطف ,وقد جاء ذلك كله في قصيدة الشاعر (من اوراق أبي نؤاس), ان دنقل يبحث عن وطنه في اشاراته الرامزة الى ثورة الامام الحسين ويبحث عن الحياة في الحاجة الى جرعة الماء ويبحث عن هويته الانسانية عندما يشير الى الظلم واستباحة الظالم محارم الله بكل بساطة ودم بارد.

وهكذا سنكون بإزاء الرصد الآتي :- ١. القصيدة الحسينية ٢. نوع التناول , وندرج في ذلك ما يأتي :-

أ. النص الخطابي ب. الغنائي ج. الدرامي د. الملحمي هـ . الفلسفي , أي انّ الأداء الشعري يرتفع تباعا في مخاطبة واقعة الطف والبكاء عليها والبدء بذكر تفاصيلها ومشاهدها ورسمها بفرشاة شاعر حزين على الواقعة , ويريد تجسيدها شعرا ودفعها الى منبر شعري ذي صوت عال مناسب مثلا لمهرجان حسيني يمضي دائما لاستذكار الامام وشهادته , فيمزج المعاني ببعض بقصد النفاذ الى لوحة مثالية أو متكاملة عن القضية الحسينية الحاضرة على مر الازمان

وترسيخ الواقعة لجملة من المبادىء التي يصحّ تناولها مرارا , على أن تحتفظ بجدتها عند قراءتها وسردها كذلك , وتتمكن من إدخال المتلقي في القضية ليحتفظ بها في وجدانه جديدة دائما تلوّح عبر أجزائها بمعان ايجابية كثيرة , ولذلك فإن هذا النوع من التناول الحسيني في الشعر ظل دائما يحظى بقبول كل متلق , ويخاطب ذائقته بمزيد من الرحابة فلا صعوبة في فهم النص أو سياقاته أو التفاعل معه , كما انه بالمقابل نص ضاغط على مشاعرالمتلقي , ومن ثم فإنّ النص الشعري الحسيني الخطابي محمّل بالغنائية كذلك , فهو نص ذو مشاهد تعبيرية عالية قادرة على إثارة مشاعر الرفض والكراهية والمقت الشديد للظلم والمطالبة الدائمة بتحقيق العدل وإحقاق الحق , وفضلا عن ذلك فالقصيدة الحسينية تربط الازمنة ببعض , فيذهب الحاضر الآني الى الماضي ويصعد الماضي بتداعياته الى الحاضر, فيختلط الزمنان بيسر وعذوبة بنية نص شعري ذي هوية حسينية , فيعرض النص ظلما انقضت تفصيلاته , وبسالة شهدتها معركة الطف للامام يعيشها الشاعر, مع بسالة متوهمة يتمناها المتكلم لنفسه , فصارت النصوص الحسينية تقليدا ابداعيا شعريا حافظ على ترسيخ المعاني الحسينية المنبثقة عن الطف مديات طويلة بالثبات ذاته .

وبناء على ما نقول فإن الصوت الحماسي المنفعل بالصور الحسينية بكل معانيها واسقاطاتها على واقع المبدع سيتمدد في النص الغنائي , فيعمد الى تلوين الفاجعة بسكب المخيال الذاتي عليها , فكأن صوت المبدع ذائب في تفاصيلها القاتمة , ذاهب الى زمانها بقلمه الصادح , لأن ما يعرف أعظم من ان يقال فيه أو يعبّر عنه بكل قريحة دفاقة , ولذلك

تفاوت المبدعون في الإجادة برسم مشهد الطف شعرا , وان النص الحسيني بإمكانه – أيضا – أن يكشف عن تعلق المبدع بإرثه الديني والتأريخي وقدرته على فرز الوقائع وترتيبها وإدخالها في ميدان الشعر .

لقد ذكرنا النص الملحمي الحسيني لقصيدة الجواهري العينية , إذ جادت مخيلة الشاعر بأبهى المعاني الراسمة لصور المأساة في ذكر راثية باكية مشيدة بالبطولة ومفجوعة بما وقع تفاصيل استشهادهم وثباتهم على الحق, وذلك في اسهاب فني أرغمته الواقعة على تخليق وصنع المزيد من العبارات والجمل المتلاحقة في نفس شعري متهدج سعى الى التعبير بكل طاقته الفنية

من دون توقف , ولعله نفس واحد صنع نصا كلاسيا عموديا جميلا تداخل في نسيجه المحكم الرثاء مع تأمل الفاجعة مع إكبار الشجاعة والشهادة مع خصوصية الحدث الملهم للمبدع حالما يحتاج الى موح وملهم ليحول التفاصيل الى ذائقة المتلقي بذات العمق وذات التوهج , فتنساب أبيات القصيدة (آمنت بالحسين) لتلقي بظلال القدسية على الامام والحدث الاليم كله , انه حدث عظيم لم يكتب الله ان يحصل لغير الحسين ابدا, يقول الشاعر (٩) :

فداء لمثواك من مضجع تنور بالابلج الاروع
ورعيا ليومك يوم الطفوف وسقيا لأرضك من مصرع
تعاليت من مفزع للحتوف وبورك قبرك من مفزع

يبدأ النص بصوت جهوري حماسي هاتف يود صاحبه لو يحتضن الحسين فاديا إياه , وملوحا بعظيم شهادته التي جعلته يغلب الموت , بل يستصغره قبالة عمق ثباته وايمانه بقضيته , بل ايمانه بخالقه الذي اختار له الشهادة بهذه الطريقة تشريفا لمقامه ومقام أهله وأصحابه كذلك , لذلك يخاطب الجواهري الامام بضمير المخاطب مباشرة , فنقرأ مفردات (مثواك , يومك , أرضك , قبرك) , والفعل كذلك بدءأ بتعاليت , انه خطاب لهفة وحب جارف لشخص الامام الحسين والخوف عليه كلما استذكر المتكلم او الشاعر , اي الجواهري , الفجيعة , فليته قادر على الفداء لافتداه , وهذا النمط من الموضوعات الشعرية لا تستجيب

ثيمته عادة الا للون الغنائي الخطابي كما ندعوه , انه بحاجة الى صوت عال حاد ومدافع عن قضيته , لان قضية الحسين عليه السلام لا تعنيه وحده , انه للاسلام والمسلمين وللبشرية كلها , وهكذا كان من القصيدة التي حرص صاحبها على تجديد عهده بها في كل مناسبة حسينية او غير حسينية كذلك , في ما نكمل الابيات التالية من القصيدة , فنقرأ :-

وصوتا لمجدك من أن يذال بما أنت تأباه من مبدع

فيا أيها الوتر في الخالدين فذا الى الآن لم يشفع

ويا عظة الطامحين العظام للاهين عن غدهم قنّع

شممت ثراك فهبّ النسيم نسيم الكرامة من بلقع

وطفت بقبرك طوف الخيال بصومعة الملهم المبدع

تتحدث هذه الابيات عن شخص الامام الحسين متسلحة بأقصى عاطفة يملكها الشاعر لكي يتمكن من أن يخاطب شخصية الحسين ويستمر منحينا خجلا امامها , لذلك يطيل الجواهري توظيف كاف المخاطب لمن يوجه اليه اعجابه به وبعظيم موقفه الذي قاده الى الشهادة , ويقدم صورة حسية ملموسة واضحة المفردات عن طوافه بقبر الامام وشمه ترابه الطيب , فاذا هب النسيم فلان المتكلم تنفسه هكذا , نسيم البطولة والكرامة الذي ربطه الشاعر بتراب الامام ومقامه كذلك , ومما نلاحظه أيضا في الابيات ان الصوت الحماسي للشاعر بقي محافظا على وتيرة واحدة , على الرغم مما يبدو على الابيات من انها ممزوجة المعاني بين البكاء على الفاجعة وشهدائها وبين تقديس بطولة الحسين وثورته , فهي أمثولة وعظة للطامحين العظام لأولئك القنوعين اللاهين عن غدهم , كذلك فالابيات لا تبالغ في وصف الامام بالاوحد في الخالدين , فالقصيدة ذات نبرة عالية تحول الغناء فيها الى خطاب نهضوي يؤشر تجاه نهضة الامام وثورته العظيمة , ويظل المتكلم يخاطب شخص الحسين فيقول :-

فيا ابن البتول وحسبي بها ضمانا على كل ما أدعي

ويا ابن التي لم يضع مثلها كمثلك حملا ولم ترضع

تمثلت يومك في خاطري ورددت صوتك في مسمعي

ان القصيدة بقيت حريصة على توجيه خطابها الى الشخصية الواحدة وكأنها تعقد الصلة بين المتكلم وبين المخاطب , وكأن حالها يقول أن المتكلم الشاعر يجثو على ركبتيه باكيا امام الامام الحسين , يبكيه ويتباهى بشأنه ومقامه ومنزلته ويعظم قضيته وموقفه وثباته تجاه عدوه , وكأنه من غير طلب يسأله المعذرة أو يعتذر اليه , لانه لا يملك الا القول والا الاندهاش من عظمة رجل قاتل اعداءه وانتصر عليهم فاستشهد , لذلك فلنلاحظ المفردات (يا ابن البتول : نداء للامام , حسبي بها ضمانا : اعتذار وحسرة لان المتكلم لا يملك الا هذه الكلمات بازاء مشهد عظيم , تمثلت يومك ورددت صوتك : انها رغبة في ان ينصهر وجدانه حزنا على الحسين ويبقى موجوعا به مهما احترق في بوتقة المديح والرثاء معه). ثمة تنوير اذن حملته قضية الامام الحسين وبلورت تفاصيله في ما استحوذ منها على اهتمام الادباء والمبدعين , فهؤلاء أو أغلبهم عانوا احباطات واقعهم ويأسهم الدائم من تغيير ما يرغبون بتغييره والاكثر من ذلك انهم عجزوا عن مجابهة طغيان السلطات والحكام في بلدانهم , فتحولوا الى طاقة من الضياء تذكي مخيلتهم ووجدوا ضالتهم في الامام الحسين وحكايته المفجعة , بل امعنوا في تفتيق جراحاتهم عندما وجدوا ان القضايا المصيرية المعاصرة مآلها مآل ثورة الامام الحسين , أي انهم مغلوبون آخر الأمر وليس من انتصار مرجو لما يؤملون الا عبر الورق والمخيلة وانبثاق المعاني الموحية بما يعرضون ولكن بطرائق فنية لا أكثر , فليس من شؤون الابداع تقديم الحلول وليس من شأن قضية الطف ان ترسم لهم طريق الخلاص لان خلاصهم اليوم في الرفض والمجابهة خسارة لا يفضلونها , في حين ان الامام الحسين لم يخش المجابهة انتصارا للحق لكنه تشظى شهيدا ثمنا لها ليلحق به أهلوه واصحابه في ركب واحد .

يقول ادونيس في قصيدته (مرآة الشاهد) (١٠) :-

وحينما استقرت الرماح في حشاشة الحسين

وازّينت بجسد الحسين

وداست الخيول كل نقطة

في جسد الحسين

واستلبت وقسّمت ملابس الحسين

رأيت كل حجر يحنو على الحسين

رأيت كل زهرة تنام عند كتف الحسين

رأيت كل نهر

يسير في جنازة الحسين

يتحرك المقطع وأسطره وجدانيا بصورة موجعة منسجمة مع هول المشهد الاستشهادي الذي يتخلل العبارات ويرسم صورها انفعاليا , بيد ان الاسطر مندغمة في قراءة شعرية جديدة سحبت ظل الماضي بقسوته وحدة بريقه الى الحاضر , فارتدى الشاعر لباس الشاهد المراقب اولا ورمى ثقل احساسه بالمشهد في ميدان النقاء والبياض الذي تمثله شخصية الحسين فتشذر النقاء المقصود ورودا وزهورا انداحت الى حضن صاحبها أو ممثل معانيها , فالزهر جميل نقي عطر يحمل الحياة والوانها والحسين المضرج باللون الاحمر زحفت اليه هذه المعاني مرموزة بايقونة الزهر وانتهت اليه , نامت فمضى عهد الطهر والحياة اللذين تمثله بموت واسشتهاد الحسين , وفي لفتة جميلة من الشاعر يقرن تتاليا مفردة الحجر الصلب القاسي البارد بالزهرة ومعاني ما تمثله , أثمة مفارقة اذن في أن يحنو الحجر القاسي على الجسد الطاهر وبين نوم وموت الزهر على كتفه , انه ايذان بالانتهاء على الرغم من تجلي فكرة التضحية والفداء في القصة ككل .

وفي حقيقة الامر فأن الاسطرالقليلة انتقت مفردات دالة على شمول المعنى ورصد الموضوعة ككل , بسبيل التركيز واعتصار الفكرة ونجحت كذلك في نقل مشهد مكتمل بالامكان تخيله ذهنيا أو بطريقة المخزون في الوعي الجمعي عن ثورة الطف وواقعة الاستشهاد , وهكذا فعّلت مفردات (الحجر والزهر والنهر) قيمة الرثاء بوصف هذا موضوعة أثيرة لمن أراد ان يستذكر فاجعة الطف ويكتب عن مأسأة تتجدد مع ذكرها , فقلبت الأسطر معنى كل مفردة وحمّلتها معنى رامزا وكونت منها عبارة تنسجم مع الفكرة وتخالف القراءة السريعة لكل واحدة , فالحجر الصلب الميت امتلأ حنينا والزهر الذي يعد ايقونة للمسرة والحياة فقد حياته والنهر بوصفه دالة عطاء وتدفق اختار من هو اكثر عطاء منه وامتلاء فتنازل عن معانيه للامام الحسين والتصق به , كأنه يعلن موته ايضا , أي بمعنى سهل لا حياة ولا نهر ولا زهر بعد حصول المجزرة ووقوع الجريمة , فليس من داع لكل ذا .

في حين شكل هذا الجزء من النص تتمة لحاضنة سبقته سجلت جزءا من المدلول الرئيس لهذه المقطوعة على ان خيوطها كلها مجموعة تنتهي الى عين الرائي / المتكلم , فهو الذي رأى المناظر المفجعة وشهد عليها فشهد على عصره معها وهو الذي افترض بانهمار هلعه وخفوق قلبه مشاهد النهر والزهر وهو الذي حضر ساعات الطف حتى انتهت بقتلاها وسباياها , هو الراصد العليم الذي قسم الازمنة من زمان الحسين الى زمانه , أي زمن المتكلم الشاهد على مأسأة متوارثة نقرن شظاياها بأزمنتنا ونقرن احداثها بما نعيشه بين ظلم وغياب عدل , بين جرائم مسكوت عنها وضحايا , بين حقوق سليبة ومطالب لا يفتر عنها , وهكذا .

برعت المقطوعة في البكاء من غير صوت على عاشوراء وسحبتها الى حاضر مرفوض من المتكلم فقسمت الاسطر نفسها بين نسقين الاول حققته الاسطر الخمسة الاولى وتكفل النسق الثاني بصنع التفاوت وايقاف الاول عبر الاسطر الاربعة الاخيرة وانجمع الكل الى قضية مفردة بثيمة متعددة المعاني والرغبات , وهكذا تفرغ النسق الاول لرصد مشهد استشهاد الامام الحسين وطمس انموذج الحق والعدل وتقديم الفاجعة وتفسير صورتها كما رآها المتكلم ليغلق النسق الثاني الامر تماما ويخلص الى نتائج ما زال المتكلم شاعرا بها بل لعله يراها بعين وجدانه قبل افتراض باصرته التي رسمت مشهد ما حصل .

ويجيء التواتر في رص المنظومة القيمية التي يمثلها شخص الامام الحسين مفتاحا لمغاليق التواصل بين المبدع والمتلقي خاصة اليوم لاعتبارات بناء النص الأدبي المتنوع التقانات , وقد لاحظنا ذلك في نص ادونيس , فهذه الابيات جمعت شمولية القيم التي الهمها المشهد الكربلائي ولم تذكرها صراحة لكنها التفت عليها بطريقة الترميز والايحاء عندما كررت بداية ذكر اسم الحسين سبع مرات في تسعة أسطر , والاكثر من ذلك انها انشغلت بصنع فكرتها بعيدا عن الهتاف المباشر بالواقعة او البكاء برثاء الحسين بصوت خافت , وانما دفعت بكل هذا في بوتقة الشهيد الواحد , فعملت على أسطرته وحولته الى دافع للقول الشعري بعبارات سهلة لكنها تحتاج الى اعادة قراءة لتفكيكها ومن دون وعورة مثلما انها لا تعطي دلالاتها للمرة الاولى , وهذه براعة المبدع وهويته في الكتابة الشعرية .

ان اسم الحسين عليه السلام ما زال يتمتع بميزة لا تصلها شخصية تراثية أو تأريخية أو دينية مهما امتد نسبها الى بيت النبوة أو غيرها من عظيم الشخصيات التي حفظها لنا تأريخنا العريض , تلك هي ميزة الاجماع عليها انسانيا , فقد صارت شخصية أممية – ان صح الوصف – و صارت أمرا بديهيا عند المجموع حتى رسخت في اللاوعي الجمعي بوصفها تمثل عنوانات القيم الايجابية الهائلة , وضديدها كل سلبي ومنبوذ من اي مجتمع , وبامكان التناول الفني لها أن يستزيد من هذه الشخصية بطريقة التجدد المستمر والكشوف الجديدة كلما دخلت مجالا ابداعيا او حصل توظيفها والعودة اليها , فليس الامر مجرد عاشوراء ومراث لا تنقطع او بكائيات ساخنة على فاجعة الطف بل تعدى الامر ذلك الى وسم الشخصية بميسم اسطوري يندّ بها عن التصور المباشر للجريمة التي حملت اسم الطف ويجري استذكارها بثبات كل حين .

وما دامت ثورة الامام الحسين هي سرّ كونيّ للآن ما زلنا نجمع تأثيراته على المستويات الانسانية كافة , فانّ القول بأن لهذه الثورة ثقافة خاصة بها لا يبعد بنا عن حقيقتها التي اختارها الله لها , فقد رفض الامام الحسين الظلم والضيم وقاومه على الرغم من يقينه أنها انتفاضة قد تخسر رهانها , وهذا جزء من مفهوم الثورة في تعليم من سيأتي كيفيات البقاء والثبات بقوة فكرا وموقفا .

وعلى الرغم من أن القضية واقعية وأخلاقية وبطولية ودينية لكنها تمكنت من زرع ثقافة المستقبل والوعي بما سيجيء عند الناس , أي انها تريد خلق بقائها , وهذا لن يحصل ما لم ترسّخ ثوابتها الرئيسة في وعي ووجدان الناس في كل وقت , فبعض غاياتها تعليم الاصلاح بوصفه رسالة انسانية متنوعة الاتجاهات سترثها أجيال كثيرة , وقد لاحظنا كيف تعززت مشهدية البقاء لهذه الثورة عندما وعى المبدعون نهجها فتمثلوه في آدابهم , فكانوا أسوة بالامام الحسين عليه السلام رافضين لكل خطأ أو ظلم في ما يعبرون به , وهذا الأمر جزء من نهج الامام الحسين ورافد كبير لمشاريع نهضوية تسير مع تقدم الأزمنة وتتاليها , أي صياغة المشروع التوعوي والدفع به الى الآخرين , جلّ البشرية , ليحذوا حذوه , وهكذا تجلت ثورة الحسين ماديا بمعطياتها التي وقعت وتوارثتها أجيال كثيرة وتشظّت معرفيا باسقاطاتها على أزمنة طويلة تحتذيها وتقتدي وتتغنى بعظيم شهادة صاحبها وعطائه وبذله

وتجلت روحيا عبر تلك الصلابة التي امتلكها شخص الامام الحسين ونقلها بوهجها الى آل بيته وصحبه المناصرين له والذين آمنوا به وبما جاء به في طويل رحلته .

ونقرأ الآتي للشاعر العراقي عبد الرزاق عبد الواحد لنقف على دفق الثورة الحسينية وتجليات بقائها وخلودها (١١) :-

وتمضي الدهور ويبقى الحسين شهيدا تكفّنه الذاريات
وتمضي السنين ويبقى الحسين طريحا تهشمه الصافنات
وتمضي الحياة ويبقى الحسين مسجى تقام عليه الصلاة
ويمضي الطغاة ويبقى الحسين منارا به تهتدي الكائنات
ويمضي الزمان ويبقى الحسين وصرخته تصنع المعجزات
فمذ كنت طفلا عرفت الحسين ملاذا تحتمي به الكائنات
ومذ كنت طفلا عرفت الحسين عظيما يهدّ عروش الطغاة

والقصيدة طويلة لكنها حماسية رثائية ثورية عاطفية وقائمة على تكرار مفردة الحسين بوصفها سيمياء شهادة ونصر والالحاح على ترددها بوصفها مما يلذ اعادته وتكراره من اسم , فكأن الشاعر وضع الاسم وبنى باقي الابيات عليه كلها , بل كلّ القصيدة , ولو أتيح للنص أن يستمر لصنع به الشاعر ملحمة حسينية لا حدّ لأبياتها , وهذا التداعي والانهمار العاطفي قد بلغ بالشاعر مبلغا جعله ينوء بثقل وهجه فصاغه اسما للحسين ووشّحه بحكاية استشهاده وسحبه الى زمانه راثيا مرة وأخرى مزهوا بالحسين وأخرى مأخوذا بالبطولة والاقدام ,أخرى باكيا من هول الفجيعة وهكذا , إذ ثمة شحذ للمخيلة الشعرية جعلها تنهمر بمعان متنوعة بموضوعة رئيسة ودلائل عدة تشترك في الفكرة العامة الواحدة .

والأبيات على الرغم من تماثلها تحركت بين جماتين لغويا وبناء , فقد صنعت من تكرار جملة فعلية اعتمدت التماثل والتوازي وتكرار المفردة ذاتها , فشكلت نسقا كسره نسق آخر ببناء لساني مغاير لكنه اعتمد الهيأة ذاتها , اي الغناء والتكرار والجملة الواحدة ,في ما حققت تنوعا صوريا ودلاليا جيدا في حدود هذا التناسق والاشباه , فبين ويمضي ويبقى انوجدت صورة ثابتة لمضي الدهور والازمنة والطغاة وتغيرها وبقاء الحسين اسما وشخصية وشخصا وصورة ثابتة لثورة متوارثة التفاصيل وكأنها حاصلة اليوم كلما تكلم عليها انسان او وردت في

ثقافة قوم او سياق مجتمع تنتمي اليه او مجتمعات تقع في أقاصي الارض , وهذا جزء من انتصارها , ومن ثم وجدت القصيدة تحولا جميلا مع انعطافة السياق الى المتكلم , والعودة الى زمانه الحاضر واستمرار الحديث الماتع عن الامام الحسين وأثره وتأثيره وتأثير المتكلم المفجوع بمرثيّه .

يقول الكاتب الانكليزي كارلس ديكنز :- **إن كان الامام الحسين قد حارب من أجل أهداف دنيوية , فإنني لا أدرك لماذا اصطحب معه النساء والصبية والأطفال ؟ إذن , فالعقل يحكم إنه ضحى لأجل الإسلام (١٢) .**

من المفيد أن تمثل لنا هذه العبارات إضاءة عن ثورة الامام الحسين ودعوته التي تخلو من غايات دنيوية بل على العكس , انه جاء لإحقاق الحق وإقامة دين الله والظفر بالعدل وهذا هو النصر , وهذه القيمة المعنوية وما شاكلها اهتدى المبدعون بها لاسقاطها على شؤون بلدانهم وغايات ذلك انهم بقوا يفتشون عن الحق والعدل والانصاف اليوم وتغيير الواقع لكنهم عاجزون عن فعل أي شيء , ولأجله قادهم فعل كتابة القصيدة الى الاسترشاد بالطف وواقعته الأليمة والوقوف على خصوصية الشخصية الحسينية التي جابهت الطغاة وانتصرت في ما هم عاجزون عن فعل ما ينصرهم , اقتداء بالامام كتبوا اذن , واختباء خلف شخصيته وانتماء لثورته وخلط الغناء بالبكاء بالدراما لينتجوا قصائد فيها نفحات فلسفية ووجدانية معا وهياكلها وانسجتها مغلفة بلون درامي عال , نجد ذلك – أيضا – في نصوص كثيرة لنزار قباني وهو يبكي فجائع قومه وهزائمهم ومنها قصائد يستلهم فيها الطف واسم الحسين وكربلاء ويجلبها الى حاضر أمته المقيت المهزوم , فيدون الحاضر من خلال صفحات الماضي الموجعة واستشهاد الامام الحسين , انه يخاطب القضية ايضا فضلا عن اضاءة نصه بذكر فاجعة الطف , يقول قباني في قصيدة **(عندما يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الإنسان) (١٣) :-**

مواطنون نحن فى مدائن البكاء
قهوتنا مصنوعة من دم كربلاء
حنطتنا معجونة بلحم كربلاء
طعامنا..شرابنا

عاداتنا..راياتنا

زهورنا..قبورنا

جلودنا مختومة بختم كربلاء

يصف الشاعر قومه وأهله وواقعهم المؤلم بتعبير مباشر , بكلمة واحدة (مواطنون) , ثم يشفع المفردة بمفردات وجمل تفسرها بل تصفها , فهؤلاء المواطنين محكومون بالبكاء والعويل , انهم يبكون مهزومين دائما , وظلال كربلاء الملونة بالدم تحتوي مشهدهم اليوم , تلون ايامهم باللون نفسه , فهم صورة عن كربلاء , بل نسخها التي امتدت مئات السنين , وهي تشهد الفجائع واحدة تلو أخرى وهم معجونون بلحم شهدائها وقد ورثوا فاجعتها والتصقت بهم فلا خلاص من هذا الارث لا ماضيا فقط وانما هي تركة حملوها الى اليوم وسيبقون جاثمين تحت ثقل بشاعتها ويدفعون ثمن ما فعل اسلافهم بالامام وأهله , واليوم هم عاجزون عن فعل شيء الا البكاء والنحيب , ان كربلاء ستظل شاهدة على ماض لا يمكن الخلاص منه أو النجاة من تبعاته , لذلك فالمواطنون في نص قباني سيبقون في أتون المعاناة والتوجع , وهم يتحملون وزر ما صنعه اسلافهم ويشاهدون حياتهم اذ تسير في النهج ذاته بين الطغاة والمظلومين ولكن من دون جدوى لرد الظلم والاقتصاص من الظالمين .

وفي قصيدة غنائية ذات صوت خطابي يحترفه نزار قباني يتباهى الشاعر بانتمائه للحسين وإن على سبيل الرثاء , فهذا وصل عظيم أن نبكي الحسين ونفجع به وقد خذله الجميع وانتصر هو , يقول الشاعر **(١٤)** :-

إن لم يكن بين الحسين وبيننا نسب

فيكفينا الرثاء له نسب

يا لائمي حب الحسين أجننا

واجتاح أودية الضمائر واشرأب

فلقد تشرب في النخاع ولم يزل

سريانه حتى تسلط في الركب

من مثله أحيا الكرامة حينما

ماتت على أيدي جبابرة العرب

أما البكاء فذاك مصدر عزنا

وبه نواسيهم ليوم المنقلب

نبكي على الرأس المرتل آية

والرمح منبره وذاك هو العجب

ان جمال هذه الابيات كامن في مواضع عدة , فالمتكلم يود أن يصل نسبه بنسب الامام الحسين حتى ولو بالشعر فقط , بمعنى اننا سنبقى نبكيه ونرثيه فيمتد سبب من النسب بيننا وبينه يصلنا به , وان حب الحسين لا لوم فيه , وهذا حق فمن يلوم انسان يحب الحسين ويعشق ثورته وهوية نهضته , ومعنى اخر في الابيات اذ اصبح البكاء مصدرعز وشموخ للباكي , اما من نبكيه فان الله نصره بثورة الطف ذاتها , في ما اتخذت القصيدة بناءها بصورة خطابية وجدانية تتثال عباراتها المحملة بالعاطفة حتى أقصاها منذ بيتها الاول حتى انتهائها بتسجيل الشاعر موقفه الذي يشابه موقف كل انسان اطلع على كربلاء والطف ووقف مذهولا أمام حالة من البطولة عمادها وقوام أساسها عمق الإيمان بالله وبالقضية التي جاء الحسين لأجلها , ومن المهم ان نذكر هنا أن الشعر العربي المعاصر سيبقى ناهلا من رصيد الثورة الحسينية التي لا تتوقف ينابيع عطائها , ومن العجيب في الامر كله أننا نبكي الفاجعة ونتباهى بها في آن واحد , وهذا عطاء حسيني خالص لا يدانيه عطاء آخر عرفته البشرية منذ ثورة الامام الحسين واهله الى يومنا هذا .

خاتمة البحث

أخذنا بحثنا في قضية أبي الاحرار الامام الحسين عليه السلام الى جولة رحبة في محرابه الفسيح الذي اتسع وامتد ليضم الانسانية جمعاء , بل ويجعلها شاهدا على فجيعة مرت بها الامة الاسلامية في حينها ولم تخمد نيران قسوتها ومرارتها الى ان يرث الله الارض ومن عليها , ولاجل ذلك فقد توقفنا عند الكثير , ومما نريد قوله هنا ان الابداع الادبي بكل صنوفه وانواعه قد جعل من واقعة الطف وذكرى استشهاد الامام الحسين عليه السلام خطا ادبيا له خصوصيته وتفرده , فنحن هنا قبالة النص الحسيني والشعر الحسيني والمقالة الحسينية والرواية التأريخية الخاصة بالاثر العظيم لمأساة الطف والرواية السياسية وحتى الفنون التشكيلية حقق مبدعوها اتصالا انسانيا وفنيا مع الثورة الحسينية وافادوا من مشاهدها لانجاز

اعمالهم , وعلى مستوى الفنون كلها اختط المشهد الحسيني خصوصية انتاج ابداعي يشير اليه بدقة .

ولم يختلف الشاعر في ولائه وانتمائه لقضية الامام الحسين عليه السلام , مهما كانت عقيدته , ومهما كان دينه فقد توقفنا تحليلا عند المبدع المسلم والاخر المسيحي والصابئي وغيرهم وتوقفنا عند من لا يؤمن بدين او ينتمي اليه لنجده يقر بعظمة الصورة الكربلائية وضرورة الاستقاء منها واستلهامها في كل حين .

ورصدنا النصوص على مستويين التحليل والتلقي ووجدنا اننا ان لم نضف الى ما قيل ويقال وكتب ويكتب عن قضية الطف ووجيعة كربلاء , فاننا ان لم نضف لكل ذلك خصوصية تناولنا لها , فان هذا البحث أشبع رغبتنا في تأكيد انتمائنا وولائنا للقضية الحسينية والذهاب في نصرتها الى اقصى غاية .

هوامش ومصادر البحث

١. وكالة العهد نيوز , قالوا في الامام الحسين عليه السلام , موقع الكتروني , ١٤ -٢- ٢٠٢٤ , https://alahadnews.net/archives

٢. مقالات في الامام الحسين (ع) , اعداد : عبد السادة محمد الحداد , الجزء الاول والثاني , اصدار قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة الحسينية المقدسة , وحدة الدراسات التخصصية في الامام الحسين (ع) , ط١ , ٢٠١٢ , ص٢٠ , ص ١٦٥ , ص ٢١٤

٣. موسوعة كلمات الامام الحسين ، اعداد لجنة الحديث : معهد تحقيقات باقر العلوم , ٢٠١٥ , ص ٥٠٦

٤. اقوال المستشرقين وعلماء الغرب في ثورة الامام الحسين (ع) ,المقالات , قادتنا كيف نعرفهم , ١٠ ذو القعدة ١٤٢٩ , موقع الكتروني , مكتبة الشيعة , www.Qadatona.org

٥. بحار الانوار **الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**, جمعه العلامة محمد باقر المجلسي , منشورات مطبعة وزارة الارشاد الاسلامي , ١٣٦٥ هـ , ج٤٥ , ص٤٠

٦. بحار الانوار , العلامة المجلسي , ج٤٤ , ص ٣٧٦
٧. ميزان الحكمة , محمد الريشهري , ج١ , مطبعة دار الحديث , قم , ط١ , ١٤١٦ هـ , ص ٨٠١
٨. العتبة الحسينية المقدسة , أراجيز الطف ... أناشيد تطرز ملحمة المجد , موقع الكتروني , mamhussain. Org , ٢٤ – ٩ – ٢٠١٨
٩. الاعمال الشعرية الكاملة , محمد مهدي الجواهري , شاعر الرفض والاباء , الجزء الاول , دراسة وتحقيق , عصام عبد الفتاح , مكتبة جزيرة الورد , القاهرة , ط١ , ٢٠١١ , ٤٧٥ – ٤٧٨.
١٠. أدونيس: ديوان المسرح والمرايا، دار الدار، بيروت، ١٩٨٨م ص ٨٤
١١. .الخطاب الحسيني في معركة الطف , دراسة لغوية وتحليل , د. عبد الكاظم محسن الياسري , قسم الشؤون الفكرية والثقافية , العتبة الحسينية المقدسة , ط١ , ٢٠٠٩ , ص٢٣ – ٢٤
١٢. شهادات من أعلام العالم حول الامام الحسين ونهضته , عدي الحاج , شبكة النبأ المعلوماتية ,١٣ تشرين الاول ٢٠١٦ , https://annabaa.org/arabic/ashuraa.
١٣. . لماذا يسقط متعب بن تعبان في امتحان حقوق الانسان , نزار قباني , ديوان قصائد مغضوب عليها , منشورات نزار قباني , ٢٠١٠ , ص٩١ – ٩٤ .
١٤. الحسين في الشعر , كيف استباحت السيوف بني الأكرمين , اليوم السابع , ١٢ اكتوبر – ٢٠١٦ , موقع الكتروني ,https://www.youm7.com